دور الثقافة الأبويّة في التربية الرّصينة

نحنُ بحاجةٍ إلى التشريع الإسلاميّ لتربية أولادنا وفق المنهج التربوي والسياسة الأسريّة في الإسلام وأعلموا أيّها الأخوة الكرام إنّ الدّين ليس هذا للحريّة بل ضمانًا للسلامة، مثل نظام المرور في الشوارع يحدّد لك متى تقف ومتى تسير وبأيّ سرعة، ويضع لك خطوطًا حمراء أمام مايسمّى للسلامتك، فهذه القيود تسمى بنظام المرور. وتلك القيود تسمى بالدّين.

وهنا تبرز أهميّة ثقافة الوالدين؛ فالطفل يحتاج لمعرفة الخير والشر الى أرشاد أبويه دائمًا وواجب الأبوين في تعليم الخير والتبصير بالشر واجب مقدس، ولكنّ الأوامر والنواهي يجب أن لاتتجاوز الحدّ المعقول بحيث تجعل الطفل يتفهمها، ولاننسى قول رسول الله ص-

يسّروا ولا تعسّروا وبشروا ولا تنفّروا

وفي بعض الحالات

قد يختلط الوالدان في تربية أولادهم بسبب أختلاف مستوى ثقافاتهم فمنهم من يرى مثلاً،

إنّ الخوف هو أساس التربية، ومنهم من يرى أنّ الحريّة المفتوحة هي أساس التربية وتقوية شخصيّة الأولاد، وهكذا نرى إنّ التخلّف بالثقافة والنقص بالمعرفة هي أشكاليّة كبيرة في كل الشعوب المتخلفة. ولكن في الشعوب المتطورة نلاحظ متى عندما تشتري حيوانًا أو طيرًا لتربيته تزوّد بدليل يعلّمك طبيعة أكله وكيف تنظفه وتتعامل معه أما في مجتمعاتنا فقد نجد من خلّف عشرة أولاد ولم يكلّف نفسه أن يقرأ عشرة أسطر في التربيه، وهكذا نرى:

أنّ فقه التربية للأسف متخلّفًا في مجتمعاتنا مثل باقي الأمور.

وأنا أحيّي الآباء والأمهات الذين يحيون الفطرة الأيمانية عند الطفل ويربّونه مؤمنًا منذ الصغر فأنهم يصبّون ركائز السعادة من جهة ويكونوا قد قاموا بواجباتهم في التربية من جهة أخرى.

ويجب أن يعرّفوا الطفل منذ الصغر أن لا ييأس أمام حوادث الزمان ويفهّموه أيضًا أن اليأس من روح الله ذنبٌ عظيم.

فالله سبحانه وتعالى قادرٌ على حلّ مشاكل خلقه وتيسير أمورهم وهو منهم قوله تعالى:

فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا آيه ٥ - الشرح

فكل عسر يأتي معه يُسر، ليس بعده بل معه أي أنّ كل مشكلة تحمل حلّها معها ويؤكد سبحانه وتعالى ذلك في نفس السورة في الآيه التاليه قوله تعالى:

إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا آيه ٦ - الشرح

وكذلك ندعو أولادنا أن لا يُحمّلوا عِبء يومهم الذي لم يأتِ على يومهم الذي هم فيه.
وندعوهم للثبات ونَشدّ أزرهم بقوله تعالى:

وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ من آيه ١٧ - لقمان

فتقوية رابطة الإيمان بالله في نفس الطفل يقوّي عنده روح الكفاح والصبر في هذه الحياة.

ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين.

كم هي قويّةٌ هذه الآية المباركة في مواساة المؤمنين ودفعهم الى الأمام، هذه مواساةٌ من الله سبحانه وتعالى لكل المؤمنين في أيّ زمان ومكان بعد أن يتركوا الهوان والحزن.. وإنّ الله على نصرهم لقدير.

وعلى الأبوين أيضًا أن يُوقظا الإحساس بالمسؤولية أمام الله في الطفل ويحثّاه على الشعور بواجبه بأسلوب بسيط، وأنّ الله تعالى يُجازي على الحسنات ويعاقب على السيئات ويعوّداه على الصدقة والمعروف والكلمة الطيبة.. مَن تصبح عنده مَلَكَة، وكذلك نتابع عنده غريزة التفوّق وحبّ الكمال والرغبة في الترقي والرفعة وهذه كلّها طبعًا من حبّ الذات المودعه في فطرة كل إنسان.
والأب المربّي القدير يستثمر هذه الثروة النفسيّة ويسوق ولده الى طريق المعالي والخُلق الرفيع.

لقد كان لقمان ع - أباً مربياً فاضلاً آتاه الله الحكمة بقوله تعالى:

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ لقمان

صدق الله العظيم

ثم قال تعالى:

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ صدق الله العظيم

ثم جاء في قوله تعالى على لسان لقمان ع -

يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ صدق الله العظيم

من التوجيهات الأبوية من لقمان الحكيم لابنه إنما جاءت في القرآن الكريم كمنهج تربوي إسلامي يحمل أرقى القيم الإنسانية لكل مسلم يقرأ أو يسمع القرآن بوعي وقلب حي.

والآن أنقلكم الى مقطع من وصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ع.
لأبنه الإمام الحسن ع - وهو سيد شباب أهل الجنة . حيث قال عليه السلام :

يابُنيَّ أجعلْ نَفسَكَ ميزانًا فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ماتحبُّ لنفسِك وأكره لَهُ ما تكرَه لها ، ولاتَظلِم كما لاتحبُّ أن تُظلَم وأحسِنْ كما تحبُّ أن يُحسَنَ اليك ، وأستقبح من نفسك ما تستقبحُهُ من غيرك ، وارضَ من الناس بما ترضاه لهم من نفسك ، ولاتقل مالاتعلم وإن قلَّ ما تعلم ، ولاتقل مالاتحبُّ أن يُقال لك ، واعلم أن الإعجابَ ضِدُّ الصواب وآفةَ الألباب ، فأسعَ في كدحِك ولاتكن خازنًا لغيرك وإذا أنت هُديتَ لقصدِك فكن أخشعَ ما تكونَ لربِّك .

نهج البلاغة/شرح ابن أبي الحديد

هذه توجيهات أبوية عظيمة أخرى من أب كعلي بن أبي طالب أمير المؤمنين ع - عُدّت كمنهج تربوي إسلامي حملت أرقى القيم الإنسانية لكل العالمين وغير المسلمين .

ويجب أن نمنح أولادنا فهماً من الحرية المسؤولة ليجربوا أنفسهم ويختبروا قدراتهم. فاذا حاول الأولاد رسم برنامجاً خاصاً بهم في أعمالهم فلا تمنعوهم من ذلك بل أتركوهم أحراراً لأن ذلك عاملاً فعالاً في أكتساب الخبرة الذاتية وتكوين الشخصية عندهم.

واذا صدر سلوك غير محبذ منهم مثلاً فعلى الوالدين أن يُرشداه الى السلوك السليم بأسلوب هادئ لايتعرض لشخصيته بالأهانة والتقريع والملامه، فهذا يؤدي الى إصراره وعناده فيعكس النتيجة المرجوه، بل ويحطم عنده كثيراً من الطاقات .. لاسيما عند الأولاد المراهقين حيث يجب أن ندرك خطورة عدم تعزيز الروح المعنوية عندهم وخطورة تركهم للحيرة والفراغ وهيمنة الشهوات.

وتجنب الأنفعال في الملامة والتقريع والعتاب اللاذع. وبهذا يقول أمير المؤمنين ع.

الأفراط في الملامة يسبب نيران اللجاج

واذا عدنا الى الشق الثالث من الحديث الشريف قول رسول الله صلى الله عليه وآله:

... لايرهقه ولايخرق به

أي لايقول له مثلاً: أنت غبي، أنت فاشل، أنت سفيه، أنت صغير أنت بليد، أنت كذاب ... الخ.

فكل من هذه الأهانات وغيرها من أب مترفع ومتعسف كافية لأن تعمل في عقله الباطن وتقف حاجزاً دون ظهور الصفات الفاضله في نفس الشاب وتعيق تكامل قواه المعنوية.

واذا كان سلوك الطفل فاسداً وعدوانياً فيجب أتباع الأساليب التربوية الدقيقه، فكل أسلوب يحمل شيئاً من المعارضه يقابل بالفشل، وإن الف عبارة: - لاتفعل - ولدي لاتفعل هذا - الصادرة من الوالدين قد لاتنفع في مثل هذا الطفل بل تفتح أمامه عالماً من - الممكنات -

فهو قد يفكّرُ في نفسهِ قائلاً : يجب أن لا أفعل هذا ؟ إذن أستطيع أن أفعله. وسيفعله عند المقدره فتحصل على نتائج عكسيه ! إذن يجب ان نتجنب الأفراط في الأوامر والأفراط في الملامه كما ذكرنا سابقًا ، ويجب أيضًا أن نعين له ميولاً أخرى بديله تحلّ محل الميول السابقه وتوجهه نحو أهداف مفيده وساعده على ظهور وتحوشخصيته .

أخوتي الآباء .. أخواتي الأمهات .

إنّ التربيه الأساسية موكلةٌ للوالدين ، الأب والأم، ومهمة الثقافة الأبوية أن يستشعر الأبوان دورهما المركزي في التركيز على أهم مرحلتين يمرُّ بهما الأنسان في حياته هما مرحلتي ؛ الطفولة والمراهقه .
وأقوى تحوّل عند الطفل يكون في مرحلة المراهقه ، وغالبًا ماتتأثر مرحلة المراهقة وتتشرب مهم جذور الطفوله .
ففي مرحلة الطفوله إذا كان الطفل عنيدًا ولم يعالج بالتربيه الهادئه سيكبر معه عناده حتى يكبر وتصبح المشكله أكبر .

وكثيرًا ما تصدرُ سلوكياتٌ مزعجة من الأطفال ، ولمّا كنّا نرفع شعار :
لا للضرب فما هو الحل إذن ؟ وكيف نتصرّف
وما هي الأساليب لوقف هذا السلوك ؟

إذا عرفنا أنّ السلوك هو ثمرة الشجرة ، إذن يجب أن نبدأ بالتغيير مهم جذور هذه الشجرة وهو الأدراك ، أي نعمل على تحسين الأدراك .

فهذا السلوك المزعج أو العدواني عند الطفل يأتي من الأدراك السلبي عند هذا الطفل .
فهو في حدود معينه قد يؤذي أخيه ؛ عند هذا الحد يعتبر سلوكًا عاديًا
ولكنّ الأذى الكبير ليس عاديًا !!
فهذا دليلٌ على أنّه يحمل سلوكًا سلبيًا كبيرًا ينبع من ادراك سلبيّ كبير .

إذن ، ماذا يجب على كل أب وأم أن أفعل لتطوير السلوك الإيجابي ووقف السلوك السلبي عند هذا الطفل . ؟

هذا النوع من التربية متعب جداً ويحتاج الى مجاراة في الحديث واشعاره بالأعتبار . وأشباع الطفل عاطفياً لأن الطفل العدواني يعني إنه يعاني من نقص في العاطفه ونقص في الحنان . هذا من جهه ومن جهة أخرى فإن

كثيراً من الأطفال يمتلك طاقة جسمانية كبيرة يحتاج لها مساحة لتفريغ هذه الطاقه ويحتاج الى مسالك لتفريغ هذه الطاقه .
فيكون من الطبيعي أن تفرّغ في الرياضه أو المشي الطويل أو المشاركة في النوادي الرياضيه ، ومن الثقافة الأبويه أن يكون الأبوين على دراية بهذا الأمر .

وعليه فإن ترك مساحة كبيرة في البيت كحديقة بالنسبة لميسوري الحال أمر مهم جداً لأن أطفالهم يحتاجون اليها لتفريغ طاقاتهم التي إذا لم يجد الطفل منفذاً لها فقد يستمتع هذا الطفل في كسر الكأس في البيت مثلاً في الوقت الذي يوليد والداه لأنه يحاول أثارة الأنتباه الى مشكلة يعيشها هو وليس بالضرورة أن يكون الطفل سيئاً .

لذلك نلاحظ في البلدان التي يكون فيها السكن عمودياً يؤسسون متنزهات ومساحات خضراء قرب هذه المجمعات السكنيه وقد تزود بملاعب للأطفال وأجهزة للرياضه ومسابح لتلك الأسباب ولأستيعاب هذه الطاقات الكامنه والتخلص منها لئلا تتحول الى سلوك سلبي عدواني يؤذي المجتمع .

ومن أجل تقويم السلوك ووقف السلوك السلبي عند أطفالك أيضاً :

أمنح من وقتك لأولادك وأمدح ولدك وعزز عنده الروح المعنوية ودعه يختار ولا يرغم أو يجبر على شيء ، بل يوجه للأجدد والأفضل ثم حسسه بالأعتبار وأحترم رأيه ولا تنهره أو تقلل من شأنه خصوصاً أمام الآخرين وكذلك كلفه ببعض المسؤوليات والواجبات التي تتناسب مع عمره ليتعلم ويكتسب الخبرة ويشعر بذاته ، فالواجبات تعلمه وان كانت بسيطة ثم أشعره بالقبول والحب وأنك سعيد به وتجنب المقارنة بينه وبين غيره كأفضل منه حتى وان كان أخوه

وأبتعد عن النقد اللاذع والأستهزاء والأفراط في اللوم ثم أعدل بين أولادك فالأب الواعي الذي يستشعر دوره الأبوي المقدس يكون عادلاً بين أولاده ، فعدم المساواة بين الأولاد يؤدي الى أنتاج أولاد عدوانيين في داخل الأسرة الى المجتمع الكبير ، ويتحول الأخوة الى أعداء .

وعليه

يجب أن نكون عادلين في التعامل مع أولادنا جميعاً فلا يجوز تمييز أحداً عن الآخر أو تفضيل الأبن على البنت أو البنت على الأبن أو الأكبر على الأصغر أو الأصغر على الأكبر بل قسم حتى نظراتك الأبوية بينهم بالتساوي ليشعروا أنهم على مسافة واحدة منك دائماً .

قيل لأحد الحكماء : أيّ أولادك أحبّ اليك ؟ فقال :

صغيرهم حتى يكبر ومريضهم حتى يبرأ وغائبهم حتى يعود .

أي أنهم متساوون في حبه فكلهم كانوا صغاراً وكبروا وكلهم يمرضون ويبرؤا وكلهم يغيبون ويحضروا وكلهم يحضون بوجدان حبه .

ونحن مازلنا في صدد السلوك السلبي للأطفال أنقل اليكم ما حدثني به القاضي الأستاذ مهدي الربيعي مدير محكمة الأحداث سابقًا في بغداد عام ٢٠٠٠م حيث قال:

عملت في القضاء ثلاثين عاماً ولم أرَ مثل حقبة التسعينات في جنوح الأحداث والجرائم التي أرتكبوها ، لقد مرّت علينا قضايا جنائيّة يشيب لها الطفل .

وهي فترة الحصار العالمي الذي فرض على الشعب العراقي والقحط المدقع الذي أصاب العراقيين آنذاك وهو وضع أستثنائي وغير طبيعي دفع بكثير من أطفال الفقراء والعوزين الى العمل وترك المدارس مما أدى الى جنوح كثير من الأحداث وأصبحوا خارج السيطرة بل شكلوا مصدر تهديدًا وخطرًا على المجتمع فأضيف مرضٌ آخر الى أمراض المجتمع العراقي التي نعاني منها حتى يومنا هذا .

وهذا ما جعل الحياة المدنيّة في العراق تتطلب الى أصلاح كبير ووقت طويل وقبلها قدرة المجتمع العراقي على اصلاح نفسه، ويبدأ قرار الأصلاح من الطفل وتثقيف الأبوين.

لقد أدّى ذلك الوضع السيئ أيضًا الى ظهور حالات خاصة وشاذة ميئوس منها ، لاتخضع أو تستجيب لأصول التربية الأعتياديّه والتقويم السليم بل تحتاج الى معالجات خاصة لكونها حالات خاصة أفرزتها الحاجة والفقر والبيئة السيئة وأنعدام التعليم .

وهناك حالاتٌ خاصةٌ أخرى تؤثر في السلوك السلبي للأطفال تتعلّق بالجينات التي تلعب دورًا مهمًا في النزعة الى العنف وحب التسلط ولكنه إذا كان يعيش في بيئة غير مستفزة قد ينشأ نشأةً طبيعيّة ولكن في كثير من الأحيان يبقى الطبع يغلب التطبّع .

وهناك حالاتٌ خاصة أخرى تأتي من تعرض الأم الحامل لمرض عضوي أو نفسي أثناء فترة الحمل أو استعمال عقاقير طبيه أثرت على الجنين ، هذه الحالات طبعًا تعجز عن أصلاحها أصول وقوانين التربيه الأعتياديه بل تخضع للطب والطب النفسي .

وأطلُّ هنا على قصةٍ لطيفةٍ بشأن الطبع والتطبع مفادها :

أنّ امرأةً عجوزاً كانت لا تملك الا شاةً تعتاشُ على حليبها فرأت يوماً رضيع ذئبٍ ماتت أمّه وتركته في العراء ، فحنّت عليه وأتت به الى بيتها ثم جاءت به الى الشاة وبدأ يتغذى على حليبها فلما كبُر بقرَ بطن الشاة وقتلها فقالت العجوز تخاطب صغير الذئب وهي تبكي :

بَقرتَ شُوَيهتي وفجعتَ قلبي ... وأنت لشاتنا ابنُ ربيبُ
غذيتَ بنتها وربيتَ فينا ... فمن أدراك أنّ أباك ذيبُ
إذا كانت الطباعُ طباعَ سوءٍ ... فلا أدبٌ يفيد ولا طبيبُ

ويقول الشاعر العربي في هذا الصدد أيضاً :

فيا عجباً لمن ربيتُ طفلاً ... ألقمه بأطراف البنان
أعلّمه الفتوة كلّ وقتٍ ... فلمّا طرّ شاربُه جفاني
أعلّمه الرماية كلّ يوم ... فلمّا اشتدّ ساعدُه رماني
وكم علّمته نظمَ القوافي ... فلمّا قال قافيةً هجاني

طبعاً هذه الحالات تدخل ضمن الشذوذ وليس قواعدُ مسلّمٌ بها وقد ذكرنا من أسبابها فلو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطُلت الوصايا والمواعظ لذلك قال رسول الله صلى الله عليه وآله :-

حسّنوا أخلاقكم

فالطبع الحسن بلا شك هو أقوى من التطبّع لأنه الأصل وإذا كان الخلق الحسن طبيعيًا صار سجيةً للإنسان وطبيعةً له .

أخواتي الأمهات -- أخوتي الآباء

ومن أسباب السلوك السيئ للأطفال أيضًا هو الإعلام السيئ الموجه للأطفال ومن مسؤولياتنا كمربين أن نكون على دراية مبكرة بما يحيط بنا ويوجه لأطفالنا .

وأؤكد هنا على بعض الإعلام الموجه للأطفال ، فهو خطير جدًا قد يؤدي الى تعليمهم السلوك العدواني الذي يؤدي بهم الى الجنوح والإقدام على الجريمه .

فالمادة الإعلاميه المقدمه للطفل قد تعطي المثال والقدوة الخاطئه ؛
فإن كرين دايزر وسبايدرمان ... الخ من شخصيات وهمية خاطئه يصدق بها الطفل ويجعل الأطفال يرتبطون بسفاسف الأمور بواسطة هذه الأفلام التي تحبب اليهم العنف وأدوات القتال والروح القتاليه .
فصناعة القدوة والنماذج الوهمية السيئة تأخذ بأطفالنا الى ما لا يحمد عقباه بسبب هذا الإعلام السيئ .

إن أفلام الكارتون هي أحد المصادر المهمة التي تتدخل في تأسيس وبناء ثقافة الطفل علمًا بأن الدول المتقدمه تبذل الكثير من أجل انتاج أفلام كارتون تغير ثقافة الطفل وعادة تحمل هذه الأفلام ثقافة البلدان التي أنتجتها إما لأغراض خاصه أو لتحقيق الأرباح الطائله .
أما في عالمنا العربي اليوم فنجد أن الأجيال من أطفالنا لا تعرف الى من تنتمي والى أي ثقافة تتجه .
يجب أن نوفر البديل وهذا يتطلب روح المبادرة والقرار في التغيير الإيجابي .
لدينا بالمقابل أفلام تغذي أطفالنا بالثقافة العربية والإسلامية وبأسلوب تربوي مدروس فالإسلام دين وحضارة وتاريخنا مليء بما يمتاز فلماذا لا توظف القصص الهادفه بشكل مقنن وممتع ومعاصر كأفلام كارتونيه تصبح شهيرة ومميزة وقريبة من روح الطفولة .
وهذه الأفلام قد تكون موجودة ولكن نسبتها لا تكاد تذكر بالنسبه للأفلام التي تأتينا من الخارج والتي يجب أن نختار منها ما يلائمنا فقط .

المشكلة اليوم عندنا هي ضعف المكانة الأصلاحية وأفتقار السلطة الى المربي الحقيقي مه الأب والأم والمعلم الى الدولة في مواجهة هذه التحديات وهذا الغزو الثقافي التجاري الممنهج .